من تراب الطريق!

(١٨٢) عالم الذات ! (*)

فى حياتنا الواعية العادية - يشعر كل منا وباستمرار - بذاته كذات فاعلة مالكة متصرفة مريدة مختارة . وهذا هو طابع عالم اليقظة لكل منا.. هذا العالم الذى يتميز عن النوم وعن الأحلام التى نراها فى المنام .. يتميز بالشعور المستمر بالوعى المريد المختار المتصرف المالك الذى يُبنى ويرتكز عليه كل ما نسميه بالواقع.

فعالمنا الواقعى هو عالم الذات فيه هى أهم شىء فى عين نفسها، لأن كل شىء آخر خلافها هو بالنسبة لها موضوع لنشاط وعيها المريد المختار المتصرف المالك - مباشرة أو بطريق غير مباشر.

وكما نقول إن الأمة مصدر السلطات، فإن هذا أكثر واقعية وتعبيرا عن الحقيقة فى عالم الذات .. ففى هذا العالم - الذات هى فعلا مصدر السلطات ومقر السيادة .. تضرب عملة تعاملها باسمها وتحسب كافة المكاسب والخسائر لها وعليها .. ويمسك الوعى بحساب ذلك كله ابتداء وافتتاحا وانتهاء وإغلاقاً .. فوعى الذات هو المحاسِب والمحاسَب .. تقيده الذات إن قيدته لنفسها دائنة، ومدينة إزاء نفسها !

هذه المحاسبة أيا كان أمدها أو موضوعها أو نتيجتها - تحمل دائما شيئا هاماً بل بالغ الأهمية .. هو ابتعاد الوعى والعقل ابتعاداً واضحاً عن طائلة الذات المالكة المتصرفة المريدة المختارة ووقوف الوعى منها موقف المتأمل المراجع الآمر، ووقوفها هى منه موقف الموضوع الذى هو محل

(*) المال ٢٠٠٨/١٢/٢٥

لفعل يقع عليه ويؤثر فيه وينفعل به .. لا موقف الفاعل الذى اعتادت الذات أن تقصيه !

هذه المحاسبة أيا كان أمدها أو موضوعها أو نتيجتها - فإنها تفتح وستظل تفتح دائما ثغرات فى أسوار عالم الذات أو سلطان الذات .. منها نفذ وسيظل ينفذ وعى الإنسان وعقل الإنسان إلى خارج دولة الذات وعالمها إلى عالم اللا ذات.

والنفاذ من أسوار عالم الذات ليس مشكلة فى ذاته، وإنما المشكلة الحقيقية هى صعوبة بقاء الحياة الآدمية بقيمها وصورها المعتادة خارج عالم الذات، أو بعبارة أخرى أن المشكلة هى قدرة الإنسان على البقاء حياً قويا عاملاً سعيداً فى عالم اللا ذات، مع ما يستلزمه البقاء فى ذلك العالم الذى يختلف اختلافا بيناً عن العالم الذى نعرفه - من تكيف شامل وتغيير كلى فى القيم والعادات العاطفية والفكرية والاجتماعية.

الذين استطاعوا الخروج من غالم الذات، هم فقط الرسل والأنبياء والقديسون وأفذاذ وقمم العلم والفن الخالصة المخلصة .. لن تصبح هذه القمم الرفيعة النادرة أنماطاً شعبية فى أى مستقبل معقول. عسير إن لم يكن محالا أن تحاكيها من جهة قدرتها على الحياة خارج عالم الذات - أنماط شعبية يمكن أن تقع عليها العين فى أى مكان يغشاه آدميون.